

العنف الديني في رواية بهار للروائي عامر حميو

Religious Violence in the Novel Bahar By the Novelist AmerHamio

م.م زهراء حميد مجيد

الجامعة المستنصرية / كلية التربية

Zahraa Hamid Majeed

Al-Mustansiriya University / College of Education

Zahraa.h.majeed@uomustansiriyah.edu.iq

ملخص البحث:

تتعرض رواية (بهار) لظاهرة العنف ضد الإنسان العراقي في عام (٢٠١٤) في فترة سيطرة دولة التنظيم على الأراضي العراقية الغربية يظهر لنا مشاهد مختلفة من العنف كان سببها الفكر الديني المنحرف فكانت البؤرة المركزية هي (التكفير) لنعود إلى جاهليتنا لكن هذه المرة مستترة بغطاء الدين فتحول الدين من مصدر الأمان إلى أداة لتخويف الناس وانتهاك حُرْمهم وحرّياتهم فأصبح عبء وهلاك فلا يخفى إن الرواية هي معاصرة وموثقة لحياة الفرد العراقي ليُجْعَل الروائي هذا المزيج من الواقع والأدب ليخرج لنا بتحفة روائية من خلال إعادة تمثيل أحسن تمثيل انطلاقاً من داخل الإنسان وصولاً إلى داخل النص لتضفي الطابع العدوانى المفروض الكلمات المفتاحية (التكفير، الاغتصاب، القتل، التهجير، الانتهاك).

Abstract

The novel *Bahār* addresses the phenomenon of violence against the Iraqi individual in the year 2014, during the period of the extremist group's control over western Iraqi territories. It presents various scenes of violence rooted in a distorted religious ideology. The central focus of this violence is *takfir* (excommunication), which dragged society back to a form of pre-Islamic ignorance—this time, however, veiled in the guise of religion. As a result, religion shifted from being a source of safety to a tool for instilling fear, violating sanctities, and suppressing freedoms, turning into a burden and a means of destruction.

Undeniably, the novel is both contemporary and a documented reflection of the life of the Iraqi individual. The author blends reality with literature, crafting a literary masterpiece by powerfully re-enacting events—from within the human experience to within the text itself—conveying the imposed atmosphere of aggression.

Keywords: Takfir, rape, murder, displacement, violation.

العنف لغة: كلمة عنف هي من الجذر (ع ن ف)، وهو الخرق بالأمر وقلة الرفق به. وهو عنيف إذا لم يكن رفيقاً في أمره، وجاء في الحديث الشريف: "إن الله تعالى يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف". وترد بعض الكلمات مثل عنف به، وعليه عنفاً وعنافة: بمعنى أخذه بشدة وقسوة، ولأمره، واعتنف الأمر أخذه بعنف، وأتاه ولم يكن على علم ودراية به، وطرق معتنف: غير قاصد، والتعنيف: اللوم والتوبيخ والتفريع والتفريح (منظور، ١٩٧٩، صفحة ٣١٣٣). مما تقدم نجد جميع المعاني للفظ العنف دلت على القسوة والشدة وعدم الرفق واللوم والتوبيخ، سواء كان هذا العنف سلوكياً أو فعلياً أو قولياً.

العنف اصطلاحاً: اختلفت تعريفات العنف وتعددت مفاهيمه، فكل مصطلح يشير إلى معنى أو مفهوم معين.

العنف "هو استخدام القوة استخداماً غير مشروع أو غير مطابق للقوانين، وهو أي إيذاء باليد أو اللسان أو بالفعل أو بالكلمة وغيرها يقوم به المرء ضد الآخر" (الحيدري، ٢٠١٥، صفحة ١٩)

وفي رأي آخر حول العنف "هو الإكراه المادي الواقع على شخص لإجباره على سلوك أو التزام ما (حجازي، ١٩٩٥، صفحة ١٥)، "فهو استخدام القوة ضد شخصين أو أكثر، أو ربما فرد مما ينتج عنها اعتراض يؤدي ذلك إلى هلاك صاحبها فتصل إلى التعنيف الجسدي أو الاغتصاب أو القتل أحياناً. فالعنف هو استخدام القوة لذات القوة، ومن صورها الشتم وإلغاء الأوامر والتهديد والتوبيخ فضلاً عن مصادرة الحقوق وعدم مراعاة الإنسانية (عيسى، ٢٠٠٩، صفحة ١٥). ويرى (حسن إبراهيم أحمد) أن العنف هو الفعل أو الخطاب المدمر تقوم به جماعة أو فرد ضد آخر الهدف منه إيذاء تلك الجماعة لانتهاك شخصياتهم، بمعنى أنه تعد على الآخر أو تجاهله، وأي سلوك شخصي أو مؤسستي يتم بطابع يتميز بالقسوة ضد الآخر يعمل بعد عملاً عنيفاً ونجد بعض الأشخاص يوجه العنف إلى ذاته (أحمد، ٢٠٠٩/ ط١، صفحة ٩).

بعد العرض الذي قدمناه لمصطلح العنف نجد أنه ظاهرة متجذرة في تكوين النفس البشرية منذ العصور القديمة والحديثة، فخلال البحوث والدراسات التي عمد إليها أهل التاريخ وأحصائهم للحروب التي مرت بها البشرية قتل فيها ملايين البشر، ويختفي تحت غطاء العنف الكثير من المصطلحات منها التطرف، التعصب، التسلط، الإقصاء، التهميش، الاحتقار، كذلك جلد الذات فالإنسان يمكن أن يمارس العنف ضد نفسه كذلك يمكن أن يمارسها مجموعة من الأشخاص.

العنف من وجهة نظر علم الاجتماع.

نرى ابن خلدون الذي يعد من علماء الاجتماع يتطرق لظاهرة العنف في نظريته عن الصراع عندما عرف الأخير بأن هجوم البدو على الحضر لتأسيس الدولة، أما الأسباب فيرجعها إلى النزعة العصبية وتعني عنده الالتحام الذي يوجب صلة الأرحام حتى تقع المناصرة ويحلل إن أساس العصبية هو الاستعداد الفطري الذي يجعل الفرد مندفعاً لمناصرة الأقرباء بالدم والدفاع عنه (فوزي ، ٢٠٠١، صفحة ١٠).

فإن ابن خلدون يحاول عبر ما تقدم الربط بين العصبية القبلية والبداءة بالعنف فهو يعود بنا إلى النظرة السائدة إن الإنسان هو ابن بيئته التي ينمو ويتكون فيها، وهذا يتعارض مع عصرنا الحالي الذي أصبح فيه العنف ليس وسيلة الدفاع عن النفس كما كان في السابق إنما هو يلزم حياة المجتمعات المدنية، فالحروب الدامية والحياة الإرهابية كانت الشاهد على ذلك.

العنف من وجهة نظر علماء النفس.

نقف على بعض الآراء لعلماء النفس حول العنف يرجح البعض أنهم قد تعرضوا إلى اضطراب عقلي حاد ولذلك جعل دوافعهم خليطاً متضارب من الشعور والخيالات إضافة إلى الشعور بالغبن (العيسوي، ٢٠٠٠، صفحة ١٠) أما آخرون جعلوه مرتبطاً بالنشئة الأسرية بما فيها من عقاب بدني أو نفسي ومن تسلط أبوي إلى غيرها من السلوك الغير سوي يجعل من الشخص عدواني (عبد الوهاب، ٢٠٠٢، صفحة ١٦)

أما قسم آخر من علماء النفس يرجح إن سبب العنف هو الوضع الاقتصادي والفقر وضغوط الحياة اليومية هي سبباً رئيسياً في جعل الفرد يقدم على ارتكاب العنف ضد الآخرين وفي بعض الأحيان ضد ذاته كالإقدام على الانتحار وغيرها من السلوكيات العنيفة (أبو حلب، ١٩٩٥، صفحة ٧٣). أيضاً نلاحظ إن فريقاً آخر سلك طريقاً مغايراً في تفسير تلك الظاهرة فجعل التهميش الاجتماعي الذي يفرض على الأشخاص يلعب دوراً أساسياً في زعزعة السلام النفسي مما يجعله يتخذ من العنف ذريعة ومخرج انتقامي (محسوب، ٢٠٠٠، صفحة ١٠٠). وهناك فريق يرى أن للإعلام دور في انتشار العنف عبر بث الأفلام التي تحمل طابع العنف.

نرى إن (فرويد) يسعى دائماً إلى تحليل الجانب الغامض من شخصية الإنسان؛ وذلك لإبراز إن الإنسان ليس بذلك المخلوق الطيب كما يدعي، فهو يزعم بوجود بواعث معادية ضد المقربين مهياة للاندفاع إلى الخارج إنها عدوانية كل واحد ضد الكل، والكل ضد الواحد فالإنسان عند فرويد ليس بتلك الصورة الجميلة التي يرسمها لنفسه ويدعي أنه متسامح وذو قلب طيب لا يستخدم العنف إلا عند الدفاع عن نفسه فهذه الصورة يقول عنها فرويد لا توجد إلا في الأشعار والمثل والأحلام أما الواقع فالإنسان مخلوق يخترن قدراً هائلاً من العدوانية والعنف موجود فيكوامنه الغريزية لكنه يستخدمه بوجود ذرائع تشرعن له ذلك الحق كالبقاء أو القبلية، فالإنسان لا يجد إشباعاً لغريزته العدوانية إلا في كائن آخر يمارس عليه الاضطهاد والاستغلال (أحمد، ٢٠٠٠، صفحة ١٠٠)

الأسباب المؤدية إلى العنف:

يخطر في ذهن المتلقي هل العنف فطري يولد شخص يحب إيذاء الآخرين أم هو مكتسب من البيئة المحيطة بالفرد فيرجع علماء الاجتماع والباحثين إلى أن العنف هو ظاهرة يكتسبها الإنسان من عدة عوامل منها:

١- الأسباب السياسية: في الجانب السياسي تتمثل مظاهر هذه الدوافع في غياب المشاركة السياسية لشتى شرائح المجتمع ومبدأ التداول السلمي للسلطة، وقمع المعارضة السياسية على المستوى الاجتماعي والفردى قمعاً مباشراً، كذلك غياب دور القضاء وتغشي الفساد كلها أسباب تهدف للعنف فيلجأ كل طرف إلى استخدام السلاح لإزاحة

خصومهم فأصبح العنف هو لغة الحوار بين السياسيين والواقع العراقي ليس ببعيداً عن تلك الصراعات (حبيلة، ٢٠١٠، الصفحات ١٣-١٤).

الأسباب الاقتصادية:

إن الأسباب الاقتصادية لها دور في خلق جو مشحون بالعنف، نتيجة الفقر والجهل والامية، وهذا الأمر بالتحديد فالوضع الاقتصادي الذي يطرأ على الفرد يولد لديه مشاكل كبرى فتؤدي إلى ظهور مناطق شديدة البؤس كل ذلك يولد الحقد والكراهية بسبب الطبيعة بين أفراد الشعب الواحد فالعراق يعيش اليوم وضع اقتصادي متدني مما يجعل الفرد في مثلث لا يستطيع الخروج منه مثل (الفقر والامية والبطالة) فهو غير قادر على توفير لقمة العيش فهذا العنف الاقتصادي أثر سلباً على مجتمعنا (العنزي، ٢٠٠٨، صفحة ٢٩)

الأسباب الاجتماعية:

يعد المجتمع الذي ينشأ فيه الفرد هو النواة الأولى لتكوين شخصية الفرد، فالإنسان أسير حيزه الجغرافي والاجتماعي فهو يؤثر ويتأثر بتلك البيئة المحيطة به فالعنف الاجتماعي يشمل جميع أشكال العنف منها الأسري والجسدي والجنسي وغيرها.

فمجتمعنا العربي بالتحديد ليس ببعيد عن هذا النوع من العنف حتى بعد تطور الحاصل نجد العنف ضد المرأة وعد الرجل هو السيد والمرأة هي الخادمة أو أقل منه في اتخاذ القرارات، فضلاً عن الترابط الأسري فلو قارنا بين أشخاص قد عاشوا في بيئة يملؤها التلاحم الأسري والعواطف والمشاعر، وبين آخرين لم يشعروا بوجود الأسرة في حياتهم نجد الأول يخرج أبناء ناضجين متعافين نفسياً أسوياء ذو أخلاق حميدة وبالتالي نحصل على جيل ناضج، يهتم الحفاظ على أهله ومجتمعه يفرح لفرحهم ويتألم لآلامهم، عكس الآخر يخرج لنا جيل متفكك محمل بعقد نفسية جراء الإهمال من أسرته (العودة، ٢٠١٠، صفحة ٥٩)

الأسباب الفقهية:

للعنف حالات وأسباب متعددة، تتعلق بقضايا كثيرة حضارية أو ثقافية مادية أو معنوية ومن هذه الأسباب أيضاً هناك ما يتعلق بالعلوم الفقهية. وهي منظومة معرفية شرعية متكاملة تتأسس عليها الأحكام الشرعية الفقهية وفق منهجية تأويلية واجتهادية وواقعية محددة ومضبوطة في المدونة الشرعية وفي التاريخ التشريعي في المؤسسات الاجتهادية في العصر الحالي والإخلال بهذه العلوم الفقهية قد يكون أحد الأسباب الرئيسة في قيام حالة

العنف، من خلال بعض المسوغات النظرية والقراءات التأويلية والتفسيرية التي تعكس الخلل الذي تصاب به هذه المنظومة والمرض الذي يبتلى به بعض العاملين فيها وبالتالي فإن هذه الأسباب الفقهيّة المتعلقة بأفعال وأقوال البشر من خلال الحكم على كل ما هو مكروه أو محبوب وتشمل كذلك الحلال والحرام وغيرها من الأفعال المذمومة التي أصبحت ظاهرة في مجتمعنا (الخادمي، ٢٠١٠، صفحة ٤٩)

العنف الديني في الرواية:

هذا أبرز أنواع العنف اليوم، وبخاصة في العالم العربي والإسلامي، يتخذ إحدى الصور الآتية العنف في إطار الدين الواحد ولكن بين مذاهب مختلفة والعنف بين جماعات تنتمي إلى الدين والمذهب ذاتهما، والعنف الموجه من جماعة دينية إلى أخرى. وفي عصرنا الراهن تنمو ظاهرة أدلجة الدين (المختار، ١٩٩٩، صفحة ١٩). الأدلجة التقليدية التي يتم التشديد على قيم التقوى والولاء والأدلجة الثورية، وفيها تستدعي نماذج من الماضي لتأكيد القيم الاجتماعية المشبهة على فكرة المساواة. وفي الوقت الراهن شهد تحولاً في بعض الخطابات الدينية باتجاه أقصى التطرف والتفوق والنبذ والتكفير والإقصاء لكل مخالف في الرأي أو العقيدة (زايد، ٢٠٠٠، الصفحات ١٢-١٣).

لهذا فإن الأحداث مستعدة ضد عدو داخلي أو خارجي وهذا الموقف يبلغ أقصاه اليوم لدى جماعات داعش تزين لهم نرجسيّتهم الدينية أنهم ملاك الحقيقة والعقيدة النقية وأنهم يحتكرون الحلول الناجحة لمعالجة مشكلات الإنسان المعاصر، عقول كهذه تولد فوضى، وتنتج الرعب والدمار وتخشى أن يتحول النص الديني اليوم الذي أراده الوحي أن يكون رسالة محبة وسلام وتعاون بين البشرية إلى شر ودمار وإثارة الرعب نتيجة للتفسير المنحرف الخاطي لبعض النصوص بدافع التعصب والجهل (العدوي، ٢٠٠٦، صفحة ٤٢) فإن الدين في حد ذاته ليس سبباً للعنف، إنما الطريقة التي يتم ترجمة الدين فيها إلى جماهير مختلفة من قبل أناس وكلاءهم القادة الدينيون، نصبوا أنفسهم زعماء دين منهم يحمل فكر متطرف ومعتقدات دينية خاطئة، فالعنف ليس جوهرى للحركات الدينية ولكن هذه الحركات الدينية تحتوي

وسوف أتطرق لبعض المفاهيم التي لها علاقة بالعنف منها (العدوانية) ويقصد به "ذلك المتصل الذي يمكن أن يتخذ اية صورة من الهجوم الفيزيائي، ويحتل طرفه الآخر النقد اللفظي المذهب وكل كائن يجد لنفسه موقعا على هذا المتصل، تبعاً للموقف الاجتماعي الذي يحياه" (صليب، المعجم الفلسفي، ١٩٨٢، صفحة ١١٢) ولما كان العنف من الناحية السيكلوجية أو النفسية تعبير عن قوة داخلية تتجلى على شكل انفعالات تأخذ شكل سلوك عدواني فإن هناك ترابط بين العنف والعدوانية فالأخير شكل من أشكال العنف كذلك مفهوم (الجريمة) فهي سلوكاً ينتهك القواعد العامة للمجتمع، كذلك مفهوم التخريب والتدمير والغضب ويظهر مفهوم (الارهاب) أيضاً

سلوك تمارسه جماعات لها اهداف سياسية او سلطوية او غيرها كما ظهرت في العراق بعد عام (٢٠٠٣م) جماعات (العدوي، ٢٠٠٦، صفحة ٥٢) إرهابية لها أفكار خاصة بها وتُشرعن وفقاً لمفاهيم وتعاليم تجعل من نفسها سيدة الموقف، فتقوم بالتفجيرات مدعية بأن لها الحق وإن من قام بفعل التفجير هو من الشهداء فزرع هذه الفكرة في عقول الشباب وغيرها من المفاهيم والسلوكيات الدينية المنحرفة هي جديدة على المجتمع العراقي وتمثل من أخطر أشكال العنف التي عانى منها الفرد، في كل مما تقدم أظهرت بعض صور العنف التي كانت سبباً في إلحاق الضرر سواء مادياً أو نفسياً.

صورة العنف في الرواية العراقية (بهار)

إن الأعمال الأدبية التي تناولت ظاهرة العنف كثيرة، ولما كان مجتمع المدينة بطبيعته أكثر أنواع المجتمعات تغيراً واستجابة للتجديد وتمثلاً للتحويلات فكان من الطبيعي أن تعنى الرواية في استجابتها لمتغيرات المجتمع المدني وفي ضوء ذلك صار ينظر للرواية على إنها فن العصر، فهي اليوم من أقرب الأجناس الأدبية ولها القدرة على تشخيص الذات وغدت تقارب التاريخ وتتقد الذات العربية من خلال منظورات خاصة ذاتية وموضوعية، فهي اليوم تطرح الأفكار الإيديولوجية على محك النقاش، فعند قراءة أي عمل روائي من الأعمال الأدبية، نلاحظ إن العنف يأخذ حيزاً من تلك الأعمال فهذه الأعمال كثيرة كل عمل كان له نمط معين في عرض صورة من صور العنف منها الحروب التي طالت العراق.

والبعض الآخر تناول العنف السياسي خلف قضبان السجون لمن هم مخالفين للسلطة فإن البيئة العراقية كانت لعقود من الزمن شاهدة على صور العنف مما يجعل للروائي مادة دسمة في تصوير تلك المشاهد بطريقة أدبية. سوف نحاول في رواية (بهار) الكشف عن صور العنف فأول عتبة تقع عليها عين المتلقي عنوان الرواية - بعض الروايات يكون العنوان لا يفصح عن أي إشارة لنوع الرواية فنجد الغموض يحيط الرواية حتى يتعمق القارئ في قراءة النص ليكشف عنه الستار فتتجمع لديه العناصر وما السبب من إعطاء هكذا اسم للرواية ما هو مقصد الروائي فالرواية هنا تحمل اسم واحد (بهار) وكما هو معروف في المجتمع العراقي هو اسم لعلم مؤنث يطلق في شمال العراق ويعني (الربيع) فدلالة الاسم لا يوحي بأي شيء إلى العنف.

لكن غلاف الرواية محمل ببعض الصور التي تجعل القارئ في تشويق دائم لمعرفة ما العلاقة بين (بهار) وتلك الصورة التي تحمل أحداث متمثلة تلك الصورة بوجه فتاة في مقتبل العمر، وقد قسمت تلك الصورة إلى نصفين الجزء الأول وجه الفتاة محمر ومرهق فضلاً عن عيناها كانت محملة بالدموع حتى أصبحت تلك العين مائلة إلى الاحمرار لكثرة البكاء فيها حزن واستسلام، أما النصف الثاني من الوجه صور مصغرة لنساء يحاولن

تغطية أجسادهن بأيديهن والبعض الآخر وضعت يدها على رأسها وأخريات ينقض عليها جسد ذكوري في صور متلاحمة مع بعضها كذلك لون الغلاف كان (احمر مائل إلى البنفسجي) إنه لون البشرة بعدما تتعرض لضرب مفرط فتمتلئ بالكدمات كذلك نجد هذه الصورة تبدأ من جبين الوجه وحتى النصف الآخر ولهذا دلالات واضحة تجعل القارئ متلهف لمعرفة الربط بين ذلك الاسم الدال على البهجة، وبين تلك الصور

المحملة بالقهر والعنف الجسدي والنفسي، فهذه الصور تكشف لنا حجم معاناة الشخصية وما

تعرضت له، وذلك يبدو واضحاً من وضع تلك الصور على جبينها يدل على إن تلك المشاهد لم تفارق ذاكرة البطلة مشاهد الاغتصاب والعنف اللفظي والجسدي الذي تعرضت له على

يد عصابات داعش الذي اجتاحت مدينتها الموصل فهذا الحدث الحقيقي الذي هيمن على العراق في عام (٢٠٠٤م) كانت الرواية حاضرة في تصوير تلك الأحداث بطريقة أدبية.

مصور لنا أشكال العنف التي مورست ضد الأقليات العراقية في محافظة الموصل، فالديانة (اليزيدية والمسيحية، والطائفة الشيعية) تعرضت لأبشع أنواع العنف بذرائع متسترين خلف ستار الدين والعقيدة، فنجد الروائي قدم تلك المعاناة بطريقة أدبية وحبكة روائية مشوقة، وسوف أعرض عبر هذا البحث صور العنف الديني الذي تعرضت لها تلك الديانات المذكورة سابقاً.

١ - العنف الديني:

يطراً على ذهن القارئ هل إن الدين يحمل في طياته أسلوب عنيف ولكنه يتظاهر بالتسامح والتعايش مع الديانات الأخرى، أم إنها سلوكيات منحرفة من بعض الجماعات لها أهداف سياسية للتسلق إلى كرسي الحكم؟

إن في باطن الدين الإسلامي لا يحمل ظاهرة تدل على العنف والحروب التي دارت في بداية نشوء الدين الإسلامي هي للمحافظة على الرسالة من الضياع فالرسول الاكرم (ص) هو المتسامح ينشر المحبة والتعايش لكن في العصر الحديث ظهرت لنا بعض التفسيرات المنحرفة التي فسرت الآيات على هواها، وكأن الأمر غير خاضع لسلطة فغذت عقول الشباب بأفكار لا تمثل الدين ولا حتى الإنسانية بأي صلة منها منها احلال قتل الاقليات مثل الديانة اليزيدية والمسيحية واغتصاب نسائهم، كذلك احلال تكفير الشيعة والإدعاء عليهم بأنهم روافض واحلال قتلهم وقتل نسائهم والاستحواذ على املاكهم وغيرها من الاعتداءات فسوف نتناولها عبر دراستنا.

التكفير إن هذا المصطلح هو نواة الرواية فكانت بذرة التكفير هي التي رسمت حدود الرواية ومنها بدأت معاناة شخوص الرواية فالعنف الذي مورس على الطوائف الأخرى كان أساسها التكفير، فإن تكفير أي إنسان أو اتهامه بالفسق والانحراف أو النفاق، فهذا يجرده عملياً من حقوقه الإنسانية ويعرضه للإهانة والقتل والتجهير والطرده من المجتمع، فلهذا الفكر عواقب ليس فقط معنوية أن يقذف الشخص بلفظ أنه كافر، إنما تحت مضمون هذه المفردة الكثير من الممارسات الدموية ضد الطائفة التي يتم تكفيرها فمشهد التكفير حاضر في أول صفحات الرواية كانت عصابات داعش قد أعلنت تكفير الطائفة الشيعية وغيرها من الأقليات الإيزيدية والمسيحية.

نرى مشهداً يصور لنا ما آلت إليه الأمور في تلك المدة التي يسيطر بها التنظيم "واعترى الرعب آمال...

- سأنحر دون رحمة... لو علموا مذهبي" (حميو، ٢٠١٧، صفحة ٨)

آمال كانت تنتمي للطائفة الشيعية فليس لها توبة عند دولة التنظيم فكانت ترى نهاية مصيرها لكن في محاولة خائبة منها أرادت أن تدير دفة الأمور فدعاها إلى اتباع مبدأ (التقية) من الناحية الدينية فهو جائز في طائفاتها عند وقوع الخطر فمن الناحية الدينية هو مبدأ متبع لكن من منظور آخر هو صورة من صور العنف على أبناء الشيعة مصادرة حقوقهم في كشف مذهبهم أمام المعارضين فما هو إلا صورة من صور تكميم الأفواه (نظام، ٢٠١٤، صفحة ٥٠١)

لم يكن مبدأ التقية مقتصرًا على الإسلام إنما في إرثنا التاريخي يبين ان جميع الديانات تتبعه

للحفاظ على ابناء طائفتهم اي لاسباب سياسية او للمحافظة على الأنفس من الموت والانتهاكات تعود بنا(فيفيان) التي تحمل الانجيل فكلمنا تعرضت لخطر تمسكه فكانه حصنها في الشدائد"أسأل عائلتي ونحن مجتمعون على سفرة العشاء وعبرة بكاء تعصرني:

- وبماذا أرد لو سألوني عن ديانتي ؟!

- لوح والدي في الفراغ قرب وجهة في المعلقة التي تمسكها بيده وقال

- إن شاء الله تقولي من المريح !

واضاف متحسراً بجزع وحيرة

- ياربى نحنا وين والمشاكل الي بتوقع فوقنا وين!" (حميو، ٢٠١٧، صفحة ٣٧)

وفي مشهد آخر يوضح مبدأ التقية لدى الطائفة المسيحية "وزارني في الجامعة، وطلب من الأساتذة الذين حكيت له عنهم أن يثق بهم، وأوصاهم أن لا ينطقوا باسمي علناً... وأوصيت من أخواني أنا أن أكون حذرة في النقاشات الدينية، وأبتعد عن رسم شارة الصليب إذا شاهدت مكروه أمامي.." (حميو، ٢٠١٧، صفحة ٣٧) لم يكن تعرض الروائي لهذا المبدأ وتضمينه لغرض ديني إنما لعرض مأساة ما جرى على تلك الطوائف بصورة أدبية وتمير رسالة عن تكميم الأفواه وكيف أصبح الدين عبء على من يعتقدون ديانة تخالف التنظيم. بعد أن قسمت الغنائم فكانت (آمال) التي ادعت أنها (نرجس) حفاظاً على حياتها من نصب أحد رجال التنظيم يدعى (فاروق) دخل إلى الغرفة لكي يحضر السبايا.

"من منكم نرجس؟"

فقالت آمال بصوت مرتعش:

- أنا

أخرج فاروق هاتفه النقال وأثار الضوء فيه، ثم أداره على جسم آمال الوصاح كالمنتصر:

- أهلاً آمال

واستدرك ساخراً

- عفواً أقصد نرجس...

- تعالي يا بنت الكلب...

- هذه التي تدعي أن اسمها نرجس... بنت رافضية" (حميو، ٢٠١٧، الصفحات ٤٣-٤٤)

بعد أن كشفت من قبل (فاروق) الذي كان أحد زملائها في الجامعة فكان الحكم عليها بالموت فقط لأنها تنتمي للطائفة الشيعية لتوضع في الساحة كأنها قد ارتكبت جُرم أو أنها خرجت من ملة الإسلام ليحكم عليها "وعليه فقد اصدروا بحقها الموت نحرّاً بحد السكين، لتكون عبرة لغيرها..." (حميو، ٢٠١٧، صفحة ٥٠).

"ولو كانت موحدة ولم تشرك بالله، لطلبت منها أن تنطق الشهادة... قاطعته آمال فصاحت بأعلى صوتها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله استشاط فاروق غيظاً وارتعشت السكين في يده... وبانت في صوتها غرغرة تقول.. وأشهد أن علياً ولي... غار النصل سريعاً في لحمها قاطعاً الحجرة..." (حميو، ٢٠١٧، صفحة ٥٠)

عبر هذا المشهد يظهر لنا مدى قوة (آمال) على الرغم من تكالب رجال التنظيم عليها كأنهم كلاب مسعورة لكنها تعلم إنها علقق فرغم قوتهم إلا أن نطق الشهادة قد أرعبهم هذا المشهد الملحمي يعبر عن انتصارها على عقائدهما المزيفة لتزيح ستار الدين متخفين خلفه لتجعلهم عراة بلا عقيدة ولا مبادئ فلم يرعبها جموعهم فالموتحتمي لكنها جعلته موت شرف وعزة فالروائي

قدم صورة المرأة الباسلة التي لا تهاب الموت لأنها على حق. بطريقة أدبية لم تتجاوز النصف صفحة هذه السطور السردية أوصلت صورة أدبية ممزوجة بحدث حقيقي فأوصل ما يعجز عن إيصاله صفحات فجعل المتلقي تتزاحم الأسئلة في ذهنه إلى أي نص قرأني أو أي ملة تنتمي تلك الجماعة، أم إنها أسباب سياسية لكن الروائي جعل من (آمال) تسقط تلك الجماعة التي تدعي أنها دولة وقد أرعبت الجميع بنطق الشهادة ليبث لنا رسالة إنها دولة مزيفة ترعش يدها شهادة لا إله إلا الله محمداً رسول الله.

كما ذكرت في بداية البحث إن نواة هذا العنف هو (التكفير) لنجد أن التكفير ينتج لنا أشكال من العنف هذا الفكر المتطرف يمتد في المدينة فكل فئة تدعي أنها الناجية وتسير على نهج الرسول (ص) فتعطي لنفسها احقية القتل والتهجير وأخذ النساء سبايا واغتصابهن فتنتج لنا أشكال من العنف وصور كانت تزخر بها الرواية سنتناولها في قادم الدراسة.

فالنبداء بالعنف الجسدي وهو يقصد به "السلوك العنيف الموجه نحو الذات أو الآخرين لإحداث الألم أو الأذى او المعاناة للشخص (صليب، المعجم الفلسفي، صفحة ١١٢) ويتمثل بالضرب والركل وشد الشعر، والعض فهذا السلوك يولد الإصابات الجسيمة للضحية (بركات، ٢٠٠٠، صفحة ٢١)

بعد مكوث (بهار) في المستشفى لغرض التشافي مما حصل لها خلال مدة السبي كانت لا تفارقها مشاهد الرعب والاغتصاب فعبر المونولوج الذي دار بينها وبين ذاتها وهي تستذكر المشهد الأول لرحلة عذابها "تحركت أكرة الباب وأطل رأس أشعث، تدلت منه حزمة ضفائر شعر أسود لف بعصاة من جهة الرأس... وانفجرت شفتا فمه عن صف أسنان بدت صفراء كلون السماء المغبرة..."

دفع الباب بركبته وبدت إحدى يديه ممسكة ببندقية... ثم تقدم بحذر نحوهم، مثل قط يحاصر فاراً وأطلت رؤوس من ورائه... قال أحدهم بنشوة فرح.

- أبو براء... كأي شئ رائحة سبانيا... (حميو، ٢٠١٧، الصفحات ١٨-١٩).

هذا المشهد هو بوابة المعاناة ليس لبهار فقط إنما على من اتهم بالكفر لكن (بهار) كانت عين الحقيقة فخلقت من معاناتها امرأة أخرى فكانت هي الضحية والشاهد في نفس الوقت فبعد قراءة النص يتمثل امامك مشهد سينمائي بوصفه الدقيق لتلك الجماعة وتعتمد الروائييتشبيه هؤلاء بالقط والفأر وكيف يتربص لأفتراس الفأر ما هو الا دلالة على ضعف السبانيا وهيمنة رجال التنظيم ليخبرنا بأن لاخلص لهن من تلك العصابة. لنعود بعد هذا المشهد إلى مشهد اغتصاب (بهار) لنجد الروائي يجعل له نصيب وفير من الرواية هيمن على المشاهد الأخرى للعنف

"أغلق الباب وقال دون مقدمات:

- اخلعي ثوبك

لم أتخيل أنني سأغتصب بهذه السرعة، وعندما امتنعت عن خلع ثوبي تقدم مني وهوى بكفه على خدي، رمانى كفيده العريضة أرضاً وبدت أشياء الغرفة تدور حولي، وأحسست طنيناً ينتاب أذني... وببين مدربتين فض ذراعي الملمومتين على صدري ومزقثوبي إلى نصفين وأصبحت عارية تحته لا يستر جسدي إلا ملابسني الداخلية..." (حميو، ٢٠١٧، الصفحات ٢٥-٢٦) هذا المشهد في قمة مشاهد العنف افرد له الروائي ما يقارب الخمس صفحات لم يزعم فقط منه عرض كيف تم اغتصاب بهار لكنه رسالة عرض فيها كيف تقتل الأحلام كيف تغتصب الأفكار قبل الأجساد كيف تقتل الروح لم يكن عذاب الجسد وحده إنما عذابات الروح ومن تمتع منهن أو تحاول الهرب يحكم عليها بالاغتصاب الجماعي لنعود للسؤال الأبدي في هذه الدراسة إلى أي دين ينتمون وكيف للإنسان أن يصبح أشرس من الحيوان. ألم يفضل الله على الحيوان بالعقل وتمييز الأشياء أي عقل وأي فكر يحمل هؤلاء هل هي فعلاً أفكار تُرست لهم أم إنها فرصة متاحة لممارسة الجنس بوجود ذريعة أو كما يدعون فتوى تحت مسمى ما ملكت أيما نكم يمارسون كل انحرافاتهم مرتدين غطاء الدين، لم يكن جنس الذكور وحدهم لديهم هذه الانحرافات السلوكية لنقف متعجبين من النساء فكانت لهن القوة والقسوة لا تقل عن قسوة رجال التنظيم فأقف حائرة هل لهذا الجنس الذي وصف بالقوارير أن تحمل الحقد على أبناء جنسها بكل بشاعة فأى فكر يحمل تلك النسوة "ما فكرت يوماً أن أرى امرأة تتحول وحشاً على بني جنسها، وتكون سجانة على حريتهن... حتى رأيت بأم عيني شلة نساء تجوب شوارع المدينة. لا يأمرن بالمعروف ولا ينهاين عن المنكر كما يروجن بل كنّ يأمرن بالعنف وينهين عن التسامح والمحبة..." (حميو، ٢٠١٧، الصفحات ٢٢-٢٣).

كان عملهن هو السير في الشوارع فرض القوانين على النساء وفرض الحشمة كما يدعون ومن لم تمتثل تعاقب بالجلد أمام أعين الناس في وضوح النهار فإن نسمة هواء تجعل الملابس تلتصق على جسد المرأة وهي تسير دون ان تشعر يحكم عليها فتكون داعة تستحق الرجم أو الجلد كذلك من تعارضهن تصبح زانية يحق عليها إقامة الحد

ولم يقف لهذا الحد لكن بسبب وشايتهن لرجال التنظيم ربما تقتل النساء فعلى لسان بهار "لكن عقوبات الجلد والرجمالتي تطورت فيما بعد للقتل في الساحات العامة، وسط جمهرة أهل

مدينة تحولت قيم الغيرة والشهامة عندهم لعناوين.. تؤدي بصاحبها الى الدروب المظلمة وتكون نهايتها التهلكة..." (حميو، ٢٠١٧، صفحة ٢٣)

بعد أن تناولنا نواة العنف (التكفير) فكان من صوره العنف الجسدي لنخرج على ما أنتجاه في النفس البشرية فالعنف النفسي كان حاضراً فسياسة الحرب النفسية كانت معتمدة لجعل الكل خاضعاً فما هو العنف النفسي "هو كل ما يحدث ضرراً على الوظائف السلوكية والوجدانية والذهنية والجسدية للمؤذي مثل الضرب والقتل والتهجير، الإهانة، التخويف، العزلة، استعمال سلوكيات غير واضحة" (صليب، المعجم الفلسفي، صفحة ١٠٩).

فقد توزعت هذه السلوكيات بين الخوف أو القذبة أفاظ تقلل من كرامة الإنسان وتارة بين الفزع والهلع فالمشاهد كثيرة فالمشهد الأول بعد السبي كان عند دخول بهار تلك الغرفة.

"ألم أقل لك ادخلي تلك الغرفة؟.. هيا

دخلت مجبرة وألقيت نفسي وسط غرفة نوم فيها سرير، وثمة صليب محطم على أرضيتها، وأرعبتني بقعة دم تلتخ فيها فراش السرير، لكنني تماكنت أعصابي

وقد راودني شعور ابقيت على الفراش لترعبي، وترعبي من ممن سيضطحبهن أبو براء في قادم الأيام..." (حميو، ٢٠١٧، الصفحات ٢٤-٢٥).

هذا المشهد من الدماء أثار الرعب في نفس بهار فكان اتباع هذا الأسلوب من رجال التنظيم هو لجعل الضحية تستسلم أي لا مفر من الاعتصاب ولم يكن هذا الأسلوب وحده متبع لبث الرعب تعمدهم لقتل رجال الأمن وجعل جثثهم ملقاة على الأرصفة أو معلقة على الأعمدة لأيام في كثير من المشاهد نرى تلك الأساليب.

بعد اغتصاب (بهار وفيفيان) تنقل النسوة إلى سجن (بادوش) تجمع فيه النساء غير المسلمات بعد اغتصابهن فكانت هذه المرة الأولى لخروجهن لشوارع الموصل بعد انقطاع فكانت عين بهار كأنها عدسة كامرة تحديق في شوارع مدينتها التي أصبحت مدينة أشباح يتنفس سكانها رائحة الموت كل يوم. تروي بهار "تقدمت سيارة عسكرية وغطت زوبعة الغبار خلفها سيارة الجيب، ثم قلبت حمولتها قرب الساتر فتكومت جثث مجموعة جنود أنهمكهم التعب، ولاحت آثار تعذيب على أظهرهم العارية" (حميو، ٢٠١٧، صفحة ٦٩).

إن قتل رجال الأمن يعود بنا لنواة الفكرة (التكفير) وتضليل الشعب بأن هؤلاء هم كفرة ويجب قتلهم متخذين الدين ذريعة لدوافعهم السياسية.

فبعد وصول (بهار و فيفيان) إلى السجن لتبدأ رحلة معاناة جديدة يكتض السجن بالنساء من مختلف الأعمار و المقامات العلمية والعشائرية من بينهن الطبية والمدرسة وربة المنزل واليا فاعة ومن هي في ريعان شبابها الكل مرتبطك المعاناة ليستقرن في سجن (بادوش) محتجزات في غرف ضيقة تصور (بهار) كيف تقضي ساعات الاحتجاز "خرجت أصوات تقول:

- تأخر الفطور

تحرك مزلاج الباب ودخل أربعة حراس اثنان يحملان كيسين فيهما خبز واثنان يلوحان بعصي في ايديهما لتخويف النساء... تحرك الحارسان اللذان يحملان الكيسين عكس بعضهما وراحا يوزعان أرغفة الخبز... كانت بائسة دون شيء آخر تُلف عليه ليزدردها البلعوم..." (حميو، ٢٠١٧، صفحة ٨٩)

وفي مشهد آخر تخبرنا (بهار) كيف تقضي النزيلات اليوم خلف أبواب ذلك المعتقل "غدت الأيام رتيبة مملة في السجن، وتوزعت ساعاتها بين النوم والثرثرة، ومجاعة حولت بعض المحتجزات إلى وحوش ضارية فيما بينهن على كسرة الخبز الصغيرة... ففيا لعداء يقدم لهن الرغيف مع مرق ذي لون أحمر فاتح لا شيء فيه غير البصل..." (حميو، ٢٠١٧، صفحة ٩٠) كانت تلك الأساليب دوافع شهوانية لمساومة النزيلات من أجل كسرة من الخبز إضافة لها أو لبناتها يصور الروائي عبر لسان (بهار) حجم الألم النفسي لما تعاني منه النزيلات "يخيم داخل ردهة السجن هواء خانق تزيده رطوبة الأنفاس انقباضاً على الصدور، تحس فيه النزيلة منهن كأن رأسها اغطس داخل حوض ماء وما عاد في الصدر متسع للهواء...." (حميو، ٢٠١٧، صفحة ٩٠)

الخاتمة:

- إن رواية (بهار) تأخذك إلى موضوع وثيمة جديدة وهي (العنف الديني) على الرغم من الحقب المتتالية التي عاشها الفرد العراقي من الحروب ومورست عليه أساليب عنف مختلفة لكن العنف الديني هو الثيمة الأبرز في الرواية.
- إن الرواية كانت زاخرة بألفاظ الموت المادي والمعنوي كالقتل وسلب حقوق الأقليات فضلاً عن ذلك الاستحواذ على أملاكهم وسبي نساؤهم.
- كسرت الرواية القيود فتكلمت كأنها عدسة كامرة تصور بدونانحياز لطرف فكانت عين الحقيقة لكل ما جرى في تلك الفترة.
- جُرأت الروائي في وصف مشاهد الاغتصاب فلم يتورع بل وصفها بأوصاف دقيقة.
- نلاحظ إن الروائي لم يوظف الروائي الخيال فاعتمد على الواقع بشكل واسع فجعل (بهار) هي دور الراوي
- كان العنوان مناسباً لمضمون الرواية فرغم الظلام ظهر الربيع واشرقت الشمس وبدأت الزهور فكان الاسم يحمل الأمل في داخل البطلة التي حاربت لكي تتجو من الموت المعنوي.
- نلاحظ عنصر التشويق يظهر بشكل قليل في صفحات الرواية فمال الروائي الى سرد الاحداث بشكل متسلسل فالاسترجاع قليل جداً.

المصادر والمراجع

١. سوسيولوجيا العنف والإرهاب، إبراهيم الحيدري، دار الساقى، بيروت، ط١، ٢٠١٥.
٢. السلطوية في التربية العربية، د. يزيد عيسى، سلسلة عالم المعرفة، ع ٣٦٣، الكويت، ٢٠٠٩.
٣. المخدرات وواقع العالم الثالث، دراسة حالة لأحد المجتمعات العربية، أحمد مجدي حجازي، شادية علي قناوي، مجلة القاهرة للخدمة الاجتماعية، ج ١، ع ١، القاهرة، ١٩٩٥.
٤. لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، دار المعارف، القاهرة، ج١٥، ١٩٧٩.
٥. العنف من الطبيعة إلى الثقافة، حسن إبراهيم أحمد، النايا للنشر، ط١، ٢٠٠٩.

٦. مستويات الميل إلى العنف والسلوك العدواني لدى طلبة جامعة فيلادلفيا وعلاقتهم بالارتباطية بمتغيرات الجنس، عصام فوزي، مجلة العلوم التربوية، ع ١، مج ٥٨، عمان، الأردن، ٢٠٠١.
٧. سيكولوجية العنف والعدوان، عبد الرحمن العيسوي، دمشق، دار الأنوار، ٢٠٠٠.
٨. العنف الأسري الجريمة والعنف ضد المرأة، ليلي عبد الوهاب، دمشق دار المدى، ٢٠٠٢.
٩. علم النفس التربوي، فؤاد أبو حلب، مصر، دار النهضة، ١٩٩٢.
١٠. العنف عند المراهقين والأطفال، علي محسوب، القاهرة، المركز القومي، ٢٠٠٠.
١١. نحو استراتيجية لمواجهة العنف في المجتمع المصري، مصر، المركز القومي، ٢٠٠٦.
١٢. الرواية والعنف دراسة سوسيونصية في الرواية الجزائرية المعاصرة، الشريف حبيلة، عالم الكتب، الأردن ٢٠١٠.
١٣. صورة العنف السياسي في الرواية الجزائرية المعاصرة، سعاد عبد الله العنزي، دار الفراشة للطباعة والنشر، الكويت، ٢٠٠٨.
١٤. أسئلة العنف، سلمان العودة، إعداد جسر للترجمة، لبنان، بيروت، ط ١، ٢٠١٠.
١٥. ١٥- ظاهرة التطرف والعنف من مواجهة الآثار إلى معالجة الأسباب وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، نور الدين بن مختار، قطر، ط ١، ٢٠١٠، ج ٢.
١٦. ١٦- الاغتراب والتطرف نحو العنف، محمد عبد المختار، مصر، القاهرة، دار غريب، ١٩٩٩.
١٧. ١٧- العنف في الحياة اليومية في المجتمع المصري، أحمد زايد، القاهرة، المركز القومي، ٢٠٠٠.
١٨. ١٨- أنماط العنف، محمد العدوي، القاهرة، مصر، المركز القومي، ٢٠٠٦.
١٩. ١٩- المعجم الفلسفي، جميل صليبي، دار الكتب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢، ج ٢.
٢٠. ٢٠- بهار، عامر حميد، دار ليندا، سوريا، دمشق، ط ٢، ٢٠١٧.
٢١. ٢١- التقية في الإسلام (دراسة موضوعية مقارنة المذاهب الثمانية)، عبد الله نظام، بيروت - لبنان، ط ١، ٢٠١٤.
٢٢. ٢٢- العدوان والعنف في الأسرة، مطاوع محمد بركات، مجلة الأحرار، العدد ٧٩٥، ٢٠٠٠.